تقنيات البحث الميداني

تمهيد: وقد أدى توسع مجال الأنثروبولوجيا لدراسة المجتمعات المعقدة إلى بروز مواضيع وظواهر تحتاج إلى أكثر من هذه الطريقة منفردة في دراستها، لذا كان لا بد من استخدام طرق أخرى، أو مزاوجتها لدراسة ما طرأ من تحديات. على غرار: تحليل الوثائق الشخصية المنتجة في إطار الجماعة، وتحليل الذات، تاريخ الحياة، الصورة... إلخ.

أولا. الاستمارة (الاستبانة): هي من أقدم الطرائق البحثية، ومازالت مستخدمة على نطاق واسع في كثير من الدراسات المسحية/ الميدانية. وقد أخذت هذا الاسم من عنوان نشرة أصدرتها لجنة من المعهد الأنثروبولوجي الملكي التابع لرابطة (تقدم العلم البريطانية) عام 1875، ثم جرت عليها **خمس** (**05**) تنقيحات إلى أن ظهرت الطبعة السادسة منها عام 1951.

قامت فكرة إعداد استمارة شاملة تغطي جوانب الثقافة المادية وغير المادية، على إدعاء الباحثين بأن ثقافة الشعوب البدائية جميعها مهددة بالزوال، ولذلك يجب الحصول على أكبر قدر ممكن من المعلومات، طالما هذه الشعوب موجودة. وتؤدي هذه الطريقة إذا استعملها ملاحظ غير مؤهل للبحث الأنثروبولوجي، إلى جمع الكثير من الوقائع، ولكنها تعطي القليل من المعلومات سواء عن كيفية ارتباط هذه الوقائع كل منها في الكل الذي يؤلف الثقافة، أو العنصر الإنساني في الحياة اليومية لدى شعب من الشعوب.

ولكنها في المقابل تساعد الأنثروبولوجي المختص في التحقق من النقاط التي يكون قد أهملها. وهذا ما دعا ناشري الطبعة السادسة إلى وصفها بأنها: " **مذكرة يدوية للأنثروبولوجي المختص الذي يقوم ببحث ميداني**".

وهذه الطريقة شبيهة بطرائق البحث في العلوم الاجتماعية الأخرى، ففي الدراسات الأنثروبولوجية على المجتمعات المتقدمة (المعاصرة)، يوزع الباحث الاستبانة على الأفراد المدروسين، ويترك كلا منهم يجيب عن الأسئلة بطريقته. غير أن أسلوب التنفيذ والتطبيق يختلف في دراسة الشعوب البسيطة (البدائية) التي لا تعرف الكتابة، حيث يقوم الباحث بطرح السؤال ويدون الجواب الذي يسمعه، وكذا الحال في الحوارات والمناقشات.

ثانيا. الصورة: حتى لو كان استخدام الصورة الفوتوغرافية غير منتشر نسبيًا، قدم **مارسيل موس** (1967) في دروس علم الأعراق، فكرة أن الرسم البياني للصور يجعل من الممكن جمع البيانات المرئية، وبالتالي حفظ تفاصيل متعددة تتعلق الحقائق المرصودة، المعلومات التي لا تستطيع العين المجردة وحدها الاحتفاظ بها. ومن مزيا استخدام تقنية الصورة في البحث الأنثروبولوجي، نذكر ما يلي:

- يسمح لنا التصوير الفوتوغرافي بالعودة إلى المعلومات في أي وقت، حتى بعد عدة سنوات من اللقطة، فإنه ينقل صورة للواقع يمكننا إيقافها أو التراجع عنها أو إعادة تفسيرها أو يمكننا التحقيق فيها مواضيع أخرى غير تلك المخطط لها أصلاً. مما لا شك فيه أن هذه النقطة تظهر صورة الملاحظة تفوقه على تدوين الملاحظات. وهي تحمل معها ثروة من المعلومات التي يمكن للآخرين بعدها أن يلائموها، حتى بعد سنوات من أخذ الصورة، وتستجيب لإمكانية التغيير وتعديل أسئلة البحث.
- يسمح التصوير الفوتوغرافي أيضًا بالمشاركة والمناقشة بين الباحثين، والإبداع المشترك للغة في مستند مشترك سيتم مناقشته وتحليله وتفسيره بشكل جماعي أو فردي. حتى أنه يصبح في بعض الأحيان دعمًا للمقابلات.
- التصوير الفوتوغرافي، كما سنرى في الجهاز الذي تم وضعه، يسمح بالتراكب، صورة بالصورة، تحت نفس الإطار، في أوقات مختلفة، وفي أوقات مختلفة. هذا يسمح بفهم الثوابت والمتغيرات في المدينة. إذا تغيرت المباني على مدى فترة طويلة، فإن مسار الشمس وتختلف الممارسات ذات الصلة على مدار اليوم.
- على عكس الملاحظة المباشرة، تسمح المراقبة على الصور بالعثور على هذه العناصر "في أي وقت"، دون استخدام الذاكرة أو الملاحظات، والتي تكون أحيانًا غير دقيقة في دفاتر الملاحظات. وبالتالي تصبح الصورة المادة الخام للبحث، تمامًا مثل الإحصائيات، المقابلات أو المحفوظات. وبالتالي لا يتم استخدامه كوسيلة للاتصال – التوضيح – ولكن كهدف للتحليل.

ثالثا. تقنية سيرة الحياة Histoire de vie: إن سيرة الحياة هي موضوع سجالات منهجية تتكرر دون انقطاع، وهي تستخدم كتقنية مراقبة وتحليل لمجتمع أو جماعة، من خلال ما يكون خصوصيتها وحدودها، جاذبيتها وأحيانا نجاحها الاستثنائي.

لقد شقت الأنثروبولوجيا الأمريكية الطريق لا سيما بين الحربين العالميتين (1926-1946)، أخذة كشهود رجالا قادرين على تحديد ماضي " عوالم" في طور الزوال: هنود مدفوعين إلى منعزلاتهم، أو أخر الناجين، مثل **إيشي** من قبيلة معرضة للإبادة. ويعتبر كتاب: " ***شمس هوبي*** " كأحد بدائع هذا النوع. وقد أثنى عليه: **كلود ليفي ستروس**: " ***يشكل هذا الكتاب وثيقة استثنائية القيمة للإثنولوجي والعالم النفساني.. لأنه ينجح من المرة الأولى في مشروع غالبا ما ينكب عليه دون جدوى باحث يعمل طويلا في الميدان: مشروع يقوم على إحياء ثقافة أصلية من الداخل، إن جار لنا قول ذلك، ككل حي يتمتع بانسجام داخلي، وليس كعملية جمع تقاليد ومؤسسات يلاحظ وجودها ببساطة***".

إلا أنه متحفظ تجاه استخدام هذه الأداة المنهجية كوسيلة وحيدة للمعرفة: " إن السير الذاتية لا تتكلم لوحدها". وإن تلك التي تتخذ قيمة نموذج يكون تحقيقها مسبوقا أو متبوعا بدراسة معمقة للطائفة التي يعيش المخبر الرئيسي ويعمل داخلها. هذا ما يذكره س. مينتز الذي صور هو نفسه حياة عامل قصب السكر

(1960) التي هي إحدى السير الأولى التي تصف حياة " بروليتاري"، من أجل أن نفهم كيف كان الاستعمار والامبريالية والفقر ونظام المزارع الصناعية يؤثرون بالفرد والطائفة.

منذ ذلك الحين أصبح أبطال السير متنوعين، لا سيما مع قصة "**أولاد سانشيز**" المعروفة عالميا لعائلة بروليتارية من مكسيكو، والتي أحياها أوسكار لويس (1961) عبر مجموعة سير متقاطعة. وإضافة إلى مذكرات الزمن الغابر التي عاشها التراث الشفهي أو نقلها، فإن محرومي المدن والمهمشين وعامة الناس ومنسيي التاريخ يتركون لمحات عن أوقات قد ينكرها المجتمع أو يجهلها بالكامل.

بعد الخمسينات، تطورت تقنيات تدوين السير الذاتية. لقد سمح استعمال المسجل لأفراد غير متخصصين، وغير مثقفين وحتى أميين أيضا بالتحدث عن أنفسهم ونقل تجاربهم بطريقة غير مراقبة، وعفوية وطبيعية. إلا أن الخيارات التي يقوم بها الباحث الذي يصغي يعيد الكتابة، يقص ويعيد تركيب الوثائقي لا بد إلا أن تؤثر على عفوية القصة وبنيتها، وبتالي على أصالتها، زيادة على ذلك، يطرح الانتقال من الشفهي إلى الكتابي والنقل إلى لغة غير لغة المتكلم مشاكل مهمة.

تتلخص في تدوين أهم الأحداث التي تمر في حياة أفراد المجتمع، بحيث يروي الأفراد ما حدث لهم خلال مسار حياتهم من الميلاد إلى لحظة المقابلة، وتستلزم هذه الطريقة الثقة بين الباحث والإخباري حتى يروي المخبر الأحداث دون مقاومة مما يدعم مصداقية المعلومات المدلى بها.

وقد اعتمد الباحثون الأنثروبولوجيين في دراساتهم الحقلية في المجتمعات البدوية على تتبع تاريخ عدد من الأشخاص الذين اعتبروهم "نماذج معبرة" عن الثقافة البدوية، والذين استطاعوا أن يكسبوا ثقتهم إلى حد الحديث معهم عن حياتهم الشخصية والأحداث التي عاشوها في المراحل العمرية المختلفة.

وتمكن هذه النماذج الباحث من التعرف على المعطيات التي تستدعي سنوات من المتابعة، والتي يفيد تتبع سير الحياة في معرفتها وتحليلها كانتقال الخبرات من جيل إلى جيل وتحديد مقومات اختيار الأفراد للمركز الاجتماعي المتميز، وتطور الشخصية وتميزها في الحياة البدوية. كما تسمح هذه الطريقة بتتبع الروايات والأساطير التي تأسست عليها المجتمعات.

رابعا. الفيلم الإثنوغرافي: يرجع استخدام الفيلم في العمل الميداني الإثنوغرافي، وفي تقديم الأنثروبولوجيا للعامة، أو كوسيلة تعليمية، إلى الأفلام الإثنوغرافية الكلاسيكية المبكرة مثل فيلم " **روبرت فلارتي R. Flaherty**" (1922)، "نانوك الشمال".

وأدى توفر شرائط الفيديو حديثا إلى دفع هذا المجال بقوة إلى الأمام بسبب انخفاض التكاليف بشكل كبير، ولكن الأنثروبولوجيين لم يبدأوا الدراسة المنظمة لنواحي القوة والضعف في الفيلم كأداة بحثية وتعليمية إلا حديثا في إطار الأنثروبولوجيا البصرية. ويتمثل أطراف تطورات تصوير الأفلام الإثنوجرافية الحديثة في تدريب الإخباريين على استخدام معدات التصوير، مما يسمح لهم بإعداد المواد حسب مفاهيمهم الخاصة.